

وقد أعيًا نقضُ هذه الحجج وأمثالها خصومَ التراث من قديم، فعمدوا إلى حجة أخيرة تحقق لهم كل ما يبتغون من قطع الصلة بيننا وبين التراث، إذ ذهبوا يعظمون من صعوبة الفصحى، قائلين إنها شديدة التعقيد في نحوها وصرفها وإن تعلمها عسير أشد العسر، وما أحرانا أن نهجرها إلى العامية مادام فهمها يصعب علينا ومادام الناشئة وأوساط المثقفين يتحملون في سبيله عناءً شديداً. وما الفصحى؟ إنها ليست لغتنا، إنما هي لغة العرب القدماء الذين بعدَ العهد بهم، كانوا يتداولونها في حياتهم اليومية العاملة وينطقونها نطقاً سليماً على نحو ما ننطق عاميتنا دون أى تعثر ودون أى صعوبة ودون أى حاجة إلى تعلم النحو والصرف وقواعدهما المعقدة أشد ما يكون التعقيد.

وليست هذه الثورة على الفصحى جديدة، إذ ترجع إلى العقد الأخير من القرن الماضي، حين أراد الاستعمار الآثم أن يقطع الوشائج القائمة بين البلاد العربية حتى لا تقاومه مقاومة جماعية، وحتى تنسى تاريخها وماضيها العريق الذى تحمله الفصحى فى أقوى صورهِ. وأخذ بعض المستشرقين وخاصة من الإنجليز يدعون إلى ذلك قائلين: إن تمسك العرب المحدثين بالفصحى هو سبب تخلفهم عن الأوربيين فى ميادين الحضارة والأدب والعلم، وإنه أولى لهم أن يتخذوا العامية لغة للأدب والعلم والثقافة حتى يسايروا ركب الحضارة، إذ هى لغة الشعب، ولا أمل لشعب فى أن ينهض إلا إذا أصبحت لغته اليومية العاملة نفس لغته العلمية والأدبية.

وطببعي أن سقطت هذه الدعوة فى جينها، إذ كانت دعوة استعمارية هدامة، لا تقصد إلى التقاطع بين الشعوب العربية فحسب ولا إلى التقاطع بينها وبين تاريخها فحسب، بل أيضا إلى تقاطع أشد نُكراً بينها وبين لغة القرآن الكريم، كتاب الله، وأصل الدين الحنيف، ونبوعه، ومفخرة العرب فى البلاغة التى ليس